• فصل : أسباب انحطاط الهمم :

1. الوهن : وهو كما فسره رسول الله ص (حب الدنيا وكراهية الموت) ،
أما حب الدنيا فرأس كل خطيئة ، وهو أصل التثاقل إلى الأرض وسبب الإنغماس في الترف ، وقد مرّ بشر الحافي على بئر فقال له صاحبه : أنا عطشان ، فقال : البئر الاخرى ، فمرّ عليها فقال له : الأخرى ، ثم قال : كذا تُقطع الدنيا .
أما كراهية الموت فثمرة حب الدنيا والحرص على متاعها ، مع تخريبه الآخرة ، فيكره أن ينتقل من العمران إلى الخراب .
حب السلامة يثني عزم صاحبه *** عن المعالي ويغري المرء بالكسل

2. الفتور : عن عبدالله بن عمر عن رسول الله ص : (إن لكل عمل شرة ، ولكل شرة فترة ، فمن كانت فترته إلى سنتي فقد أهتدى ، ومن كانت إلى غير ذلك فقد هلك)
والشره : نشاط وقوة ، والفترة : ضعف وفتور .

لكلٍ إلى شأوِ العلا حركات *** ولكن عزيز في الرجال ثبات

3. إهدار الوقت الثمين : أي في الزيارات والسمر وفضول المباحات ، قال ص : (نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس ، الصحة و الفراغ)

والوقت أنفس ما عنيت بحفظه *** وأراه أسهل ما عليك يضيع

قال الفضيل بن عياض (أعرف من يعد كلامه من الجمعة إلى الجمعة) ،وقال بعض السلف :(إذا طال المجلس كان للشيطان فيه نصيب) ، وكان عثمان الباقلاني دائم الذكر لله فقال :(إني وقت الإفطار أُحس بروحي كأنها تخرج لأجل اشتغالي بالأكل عن الذكر)

4. العجز والكسل : وهما اللذان اكثر الرسول ص من التعوذ منها ، وقد يعذر العاجز لعدم قدرته ، بخلاف الكسول الذي يتثاقل مع قدرته ، قال تعالى : (ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين)
وقد ترى الرجل موهوباً ونابغة فيأتي الكسل فيخذل همته ويمحق موهبته ويشل طاقته .

5. الغفلة : قال عمر ر: (الراحة للرجال غفلة) ، وسئل ابن الجوزي : أيجوز أن أُفسح لنفسي في مباح الملاهي . . ؟ فقال : (عند نفسك من الغفلة ما يكفيها) ،
قال أ.محمد أحمد الراشد حفظه الله معلقاً : (فإن اعترض معترض بمثل كلام ابن القيم حيث يقول (لابد من سِنة الغفلة ، ورقاد الغفلة ، ولكن كن خفيف النوم)، فالمراد التقليل من الراحة إلى أدنى ما يكفي الجسم ، كل حسب صحته وظروفه الخاصة ، فالمؤمن في هذا الزمان أشد حاجة للإنتباه ومعالجة قلبه وتفتيشه مما كان عليه المسلمون من قبل ، ذلك أنهم كانوا يعيشون في محيط إسلامي تسوده الفضائل ويسوده التواصي بالحق ، والرذائل في ستر وتواري عن عيون العلماء وسيوف الأمراء ، أما الآن فإن المدنية الحديثة جعلت كفر جميع مذاهب الكفار مسموعاً مبصراً بواسطة الإذاعات والتلفزة والصحف ، وجعلت إلقاءات الشيطان قريبة من القلوب ، وبذلك زاد احتمال تأثر المؤمن من حيث لا يدري ولا يشعر ، فضلاً عن ارتفاع حكم الإسلام عن الأرض الإسلامية التي يعيش فيها)

6. التسويف والتمني : وهما صفة بليد الحس ، عديم المبالاة ، الذي كلما همت نفسه بخير إما يعيقها (بسوف) حتى يفجأه الموت فيقول : (ربي لولا أخرتني إلى أجل قريب) ، وإما يركب بها بحر التمني وهو بحر لا ساحل له ، يدمن ركوبه مفاليس العالم ، كما قيل :

إذا تمنيت بتّ الليل مغتبطاً *** إن المنى رأس مال المفاليس

والمنى هي بضاعة كل نفس مهينة خسيسة سفلية ، ليس لها همة تنال بها الحقائق بل اعتاضت بالأماني الدنيّة ، وقد قال المتنبي منزهاً نفسه

عن الاستغراق في الأحلام ، مبيناً كيف ألف الحقائق واعتاد ركوب الأخطار :

وما كنت ممن أدرك الملك بالمنى *** ولكـن بأيامٍ أشـبن النـواصيـا
لبست لها كدر العجـاج كأنما *** ترى غير صافياً أن ترى الجو صافيا

.7 مرافقة سافل الهمة من طلاب الدنيا : الذي كلما هممت بالنهوض جذبك إليها، وغرك قائلاً : (عليك نوم طويل فرقد) فحذارِ من مجالسة المثبطين من أهل التبطل والتعطل واللهو والعبث ، " فإن طبعك يسرق منهم وأنت لا تدري ، ومن المشاهد أن الماء والهواء يفسدان بمجاورة الجيف ، فما ظنك بالنفوس البشرية "
ولا تجلس إلى أهل الدنيا فإن خلائق السفهاء تعدي

.8 العشق : لأن صاحبه يحصر همته في حصول معشوقه ، فيلهيه عن حب الله ورسوله (وبئس للظالمين بدلا) ، إن عالي الهمة لا يستأسر للعشق الذي يمنع القرار ويسلب المنام ويحدث الجنون ، فكم من عاشق أتلف في معشوقه ماله ونفسه ودينه ودنياه .

.9 الإنحراف في فهم العقيدة : لا سيما مسألة القضاء والقدر وعدم تحقيق التوكل على الله عزوجل .

.10 الفناء في ملاحظة حقوق الأهل والأولاد : واستغراق الجهد في التوسع في تحقيق مطالبهم ،نظراً لقولهص:(وإن لأهلك عليك حقا) مع الغفلة عن قولهص : (وإن لربك عليك حقا) ، وقد عدّ القرآن الأهل والأولاد أعداءً للمؤمن إذا حالوا بينه وبين الطاعة .

.11 المناهج التربوية والتعليمية الهدّامة : التي تثبط الهمم وتخنق المواهب وتكبت الطاقات وتنشئ الخنوع ، وأخطرها وأضرها المناهج التي ارتضت العلمانية ديناً ، فراحت تسمم آبار المعرفة التي يستقي منها شباب المسلمين ، لتخرّج أجيالاً مقطوعة الصلة بالله ، تبتغي العزة في التمسح على أعتاب الغرب ، وتأنف الإنتساب إلى الإسلام .

.12 توالي الضربات وازدياد اضطهاد المسلمين : مما ينتج الشعور بالإحباط في نفوس الذين لا يفقهون حقيقة البلاء وسنن الله عز وجل في خلقه ، وقد كان رسول الله ص يعزّي أصحابه المضطهدين في مكة بتبشيرهم بأن المستقبل للإسلام والعاقبة للمتقين ،

أخي ستبيد جيوش الظلام *** ويشرق في الكون فجر جديد
فأطلق لروحك اشـراقها *** تـرَ الفجر يرمقنا من بعيد

• فصل : أسباب ارتقاء الهمم :

.1 العلم والبصيرة : فالعلم يصعد بالهمة ، ويرفع طالبه عن حضيض التقليد ويصفّي النية ، والعلم يورث صاحبه الفقه بمراتب الأعمال ، فيتّقي فضول المباحات التي تشغله عن التعبد ، كفضول الأكل والنوم والكلام .

.2 إرادة الآخرة وجعل الهموم هماً واحداً : قال تعالى : (ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا) ،

وقالص: (من كانت همه الآخرة ، جمع الله شمله ، وجعل غناه في قلبه ، وأتته الدنيا وهي راغمة ، ومن كانت همه الدنيا ، فرق الله عليه أمره ، وجعل فقره بين عينيه ، ولم تأته الدنيا إلا ما كتب الله له) .

3. كثرة ذكر الموت : لأنه يدفع إلى العمل للآخرة والتجافي عن دار الغرور ، ومحاسبة النفس وتجديد التوبة ، وإيقاظ العزم على الإستقامة ، قال الدقاق : (ومن أكثر ذكر الموت أُكرم بثلاث تعجيل التوبة ، وقناعة القلب ، ونشاط العبادة) ،

مازال يلهج بالرحيل وذكره *** حتى أناخ ببابه الحمّال
فأصابه مستيقظاً متشمراً *** ذا أهبة لم تلهه الآمال

4. المبادرة والمداومة في كل الظروف : قال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون) فكبير الهمة يبادر ويبادئ في أقسى الظروف حمايةً لهمته من أن تهمد ووقاية لها من أن تضمر .

5. الدعاء : لأنه سنة الأنبياء وجالب كل خير ، وقد قالص: (أعجز الناس من عجز عن الدعاء) وقالص: (إذا تمنى أحدكم فليكثر ، فإنما يسأل ربه) ،

إذا لم يكن من الله عون للفتى *** فأول مايجني عليه اجتهاده

6. الاجتهاد في حصر الذهن : وتركيز الفكر في معالي الأمور ، ولنا في ائمة السلف والخلف الأسوة في ذلك ، قال الحسن : (نفسك إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل) ، وكان الخليل بن أحمد يخرج من منزله فلا يشعر إلا وهو في الصحراء ، فهو يعمل الشعر فلا يشعر بنفسه ، ويقول وليم مارتن (والعقل الإنساني يصبح أداة مدهشة الكفاءة إذا رُكز تركيزاً قوياً حاداً . . . وهذه القدرة تكتسب بالمران ، والمران يتطلب الصبر ، فالإنتقال من الشرود إلى حصر الذهن ثمرة جهد ملح)

7. التحول عن البيئة المثبطة : إن للبيئة المحيطة بالإنسان أثراً جسيماً لا يخفى ، فإذا كانت البيئة مثبطة داعية إلى الكسل والخمول وإيثار الدون ، فإن على المرء هجرها إلى حيث تعلو همته ، كي يتحرر من سلطانها وينعم بفرصة الترقي إلى المطالب العالية ، وأشد الناس حاجة إلى تجديد البيئة المحيطة وتنشيط الهمة ، حديث العهد بالتوبة ، فإن من شأن التحول من بيئة المعصية إلى بيئة الطاعة أن تنسيه صحبة السوء وأماكن السوء .

8. صحبة أولى الهمم العالية : ومطالعة أخبارهم ، فالطيور على أشكالها تقع وكل قرين بالمقارن يقتدي ، وإن العبد ليستمد من لحظ الصالحين قبل لفظهم ، لأن رؤيتهم تذكر بالله عز وجل ، وكان الإمام أحمد (إذا بلغه عن شخص صلاح أو زهد أو قيام بحق أو اتباع أمر ، سأل عنه وأحب أن يجري بينه وبينه معرفة ، وأحب أن يعرف أحواله) ، وإذا أردت أن تلمس أثر الصحبة الصالحة العالية الهمة في التسابق إلى الخيرات ، فتأمل قول محمد بن علي السلمي رحمه الله : (قمت ليلة سحراً لآخذ النوبة عن ابن الأخرم ، فوجدت قد سبقني ثلاثون قارئاً ، ولم تدركني النوبة إلى العصر) ، ويقول عمرر: (ما أعطي عبد بعد الإسلام خيراً من أخ صالح ، فإذا رأى أحدكم وداً من أخيه فليتمسك به) ، ويقول أ.د.خلدون الأحدب : (وإذا نظرنا إلى أولئك الذين استفادوا من لحظات أعمارهم ، وكان من نتاجهم ما يعجب ويدهش ، نجدهم لا يصحبون إلا المجدين العاملين والنابهين الأذكياء ، الذين يحرصون على أوقاتهم حرصهم على حياتهم لأن الزمن هو الحياة) .

9. نصيحة المخلصين : وقد يكون هذا الناصح الأمين أباً شفيقاً ، أو أماً رحيمة ، كقول أسماء ذات النطاقين توصي ابنها عبدالله بن الزبير : (يابني إن الشاة لا يضرها السلخ بعد الذبح ، امضِ واستعن بالله) ، وقد تكون زوجة وقد يكون رجلاً من العوام ، كالأعرابي حين قال للإمام أحمد : (ياهذا ما عليك أن تقتل هنا وتدخل الجنة) فقال الإمام أحمد : (ما سمعت كلمة أقوى لي من كلمة الأعرابي) .

* ملخصاً من كتاب علو الهمة للشيخ محمد اسماعيل المقدّم حفظه الله

كاتب المقالة : محمد بن عبدالعزيز المسعد
تاريخ النشر : 31/01/2013
من موقع : قناة نور الحكمة الإلكترونية - صوت علماء الأزهر الشريف بفاقوس
رابط الموقع : WWW.norelhekma.com